

كيف نربي أبناءنا

للأستاذ علي حسنى ابراهيم

ضمنى وبعض الأصدقاء أحد المجالس، وجرى بنا الحديث إلى شباب هذا الجيل وما يليق الآباء في تربيتهم من المشقة والإرهاق، وكيف تغيرت الحال عما كانت عليه قبل جيل واحد، أيام كانت للأب الكلمة العليا في منزله بين زوجته وأبنائه، يحكم فلا راد لحكمه، ويتكلم فلا معقب عليه. واستفاض الحديث في الأبناء، واستفاضت الشكوى منهم: فهم لا يوقرون آباءهم كما كانوا هم يفعلون ولا يحلون نصيحتهم وارشادهم المحل الاثني من الامتثال والتقدير، ولا يقبلون على الدروس كما كانوا يقبلون. وهم بعد ذلك أنانيون، كثيرو المطالب والنفقات، لا يباليون في سبيل ذلك أن يحملوا آباءهم مالا قبل لهم به، وأن يكلفوهم ما تنوء به مواردهم. ثم هم حريصون على أن تطلق لهم الحرية في غدوهم ورواحهم؛ وفي اصطحاب من يصطفون من الأصدقاء والرفقاء، لا يستمعون في ذلك لنصح، ولا يأبهون لقد.

واختلفت الآراء بين هؤلاء الأصدقاء في أسباب هذه الحال: فمن قال إنها ترجع إلى انتشار مبادئ الحرية وما صحبها من التحرر من قيود الأخلاق الفاضلة والتقاليد الصالحة، ومن قائل إنها ترجع إلى تهاون الآباء ونزولهم عن سلطتهم التقليدية، ومن قائل إنها اثر من آثار الفوضى التي تسود هذا الجيل في تطوره من القديم إلى الحديث.

وكما اختلفت الآراء في أسباب هذه الحال، اختلفت كذلك في وصف العلاج المناسب لها، ولكنها اتفقت على أنها حال شديدة الخطر على مستقبل الشباب، وعلى مستقبل الأمة.

ذكرنى هذا الحديث برجل عرفته من عهد بعيد: كان لهذا الرجل ولدان، اجتمع في أكبرهما كل صفات الولد الفاسد من عقوق لوالديه، وتناول عليهما، وابتزاز لأموالهما بالقوة والتهديد، وإخفاق متوال في المدرسة، وكان أبوه دائم الشكوى منه، كثير السخط والدعاء عليه. أما أصغرهما فكان قرة عين أبيه، يظهر من أرضاء عنه والاستبشار به، مقدار ما يبدى من السخط على أخيه والياس منه، وكان يعقد عليه الآمال الكبيرة، ويرى فيه خير عوض عما فاتته في أخيه. وانقضت السنون، وكبر الولد الأصغر، فإذا هو نسخة أخرى من أخيه، وصورة كاملة له، وإذا بالأب يلقى منه مالتى من أخيه، ويشكو منه نفس الشكوى. لم أعجب لما آل إليه أمر الولد الأصغر، فقد نشأ وهو يرى في أخيه قدوة سيئة لم تلبث صدواها أن سرت إليه، ثم لقد كان هو الآخر - كما كان أخوه من قبل - ضحية لوالده فقد

كان ذلك الوالد على طيبة قلبه ، وصدق طويته ، أجهل الآباء بتربية أبنائه ، وأهلهم استعدادا لذلك ، ولم تكن الأم بأوفر من لأب في ذلك حظ ، أو أكثر توفيقا .

ذكرت هذا المثال لأدلل على أن المسؤولية الكبرى في تربية الأبناء إنما تقع قبل كل شيء على عاتق الآباء ، وأن ليست مبادئ التربية ، ولا نزول الآباء عن سلطتهم التقليدية ولا فرضي التطور الحديث ، ليس شيء من ذلك ، بل وليست كلها مجتمعة بالسبب الحقيقي لما نشكوه من شباب هذا الجيل .

نقدت تربية الأبناء منذ التدم - وسبقي أبدا - من أولى مهام الآباء وأجلها بأن يعيروها كل عناية ويقهوا عليها كل جهد ، وإذا كان الآباء يقنون الآن من المشقة في تربية أبنائهم ما لم يقنوه أمدهم من قبل فالمرء في ذلك واقع عليهم وقد تطور الزمن ، وتطور معه الأبناء ، وكان حقا على الآباء أن يسايروا هذا التطور ، وأن يعدلوا في أساليب تربية أبنائهم بما يتلاءم معه ولكنهم لم يصعوا ، أوهم حاولوا أن يفعلوا فلم يوفقوا ، وكانت النتيجة أن أدلت منهم زمام أبنائهم أو كاد .

ليست الحرية التي يطالب بها الأبناء في هذه الأيام ، والتي يعزوا إليها لآباء كثيرا من المساوئ شرًا كلها ، بل ليست شرًا أصلا إذا عرف الآباء كيف يتخذون منها أداة تصلح من شأن أبنائهم ، وتعيهم عن حوض معتك الحياة ، وعرفوا في الوقت نفسه كيف يرسمون لها حدودا لا تتعداها ، فلا تطفئ على ما لهم من سلطة أو قوة مشروعة هي الدعامات التي يرتكز عليها بناء الأسرة وتقوم سعادتها .

إن تربية الأبناء من ككل الفنون له أصوله وقواعده ، وإذا كنا لا نطمح في أن يلم كل ولد بتلك الأصول والقواعد ، أو يتوفر على دراستها ، فاننا ننتظر أن يعني كل منهم العناية كلها بالتفكير في تربية أبنائه ، وأن يصح لذلك لحاظ المنظمة مسترشدا بتجاربه الخاصة ، وتجارب سواد ، وبما يوحيه إليه لذوق السليم وحسن التصرف .

وإذا كان من حق الوالد أن ينتظر من ابنه أن يشأ بارا ، مطيعا ، مؤديا لواجبه ، فعلى الأسرة ، فإن من واجبه - و هو متدوره أيضا - أن يمهده الطريق لذلك ، ويعينه عليه ، إذ ليس من العدل ولا من طبائع الأشياء أن يتنازل المرء حنوقه كاملة إلا إذا قام بواجباته كاملة كذلك .

ولن يتسع المقام هنا لقول كل ما يمكن قوله فيما يجب على الآباء اتباعه لتنشئة أبنائهم نشأة صالحة محتق آمالهم ، وترعى مطالبهم . لهذا سأقتصر على ذكر طائفة من المبادئ الأساسية أعتد أن في أخذها تيسير المهمة لا إلقاء وقتاء على كثيرين من أسباب شكواهم ، وإصلاح لشأن الأبناء ، ونحو لهم ذرية واجبه .

الطفل في السنوات الأولى :

يجب أن يوضع أساس تربية الطفل و السنين الأولى من عمره ، فإن الطفل في هذه السن يكون سريع التأثر بما ينطق عليه ، مطواعاً ، سهل القيادة ، يمكن تشكيل أخلاقه وحبها في القالب الذي يختاره والده. ثم إن الآثار التي تنطبع في ذهنه في هذه السن ، والأخلاق التي ينشأ عليها تبقى راسخة ، لا تنال منها الأيام ، ولا يضعفها الزمن .

لهذا يجب بذل العناية كلها بتربية الطفل في حدائمه ، ووضع " الدستور " الذي يحدد علاقته بوالديه وباقي أفراد الأسرة . وهو دستور إذا وضع في هذه السن وتشربته روح الطفل يكتسب كل ما نلذساته من قدامة ، واستقرار ، وصعوبة في التعديل .

ويجب أن يعنى العناية كلها بالطفل الأول . فإنه هو الذى سيكون قدوة أخوته من بعده ، يحتذون حذوه ، ويتبعون سيرته .

الوسط الذى ينشأ فيه الطفل :

تجب العناية بالوسط الذى ينشأ فيه الطفل ، فإن الطفل — وبخاصة في السنين الأولى — شديد التأثر بما يحيط به ، سريع القدوة ، شغوف بالمحاكاة والتقليد . لذلك يجب أن يجعل الوالدان من نفسيهما خير قدوة ، وأن يعلما أن ولدهما يحضى عليهما كل حركة وكل كلمة ، فلا يتفوها أمامه بكلمة نابية ، ولا يأتيها ما لا يصح أن يطلع عليه . وليحذرا كل منهما أن يظهر أمام أولاده بمظهر الكاذب ، أو الواشى ، أو المثقاب للغير ، أو المنتصب مالىس له . وليحرص الأبوان على ألا يظن أبناؤهما على ما قد يقوم بينهما من خلاف أو شجار ، فإن لذلك أسوأ الأثر في نفوس الأبناء ، وق احترامهم الوالدين .

وتجب العناية بانتقاء الخدم ، ومراقبتهم ، وعدم الركون إليهم في تربية الطفل . كما يجب اختيار الأولاد الذين يسمح له بتخالطهم والمص معهم .

كذلك يجب انتقاء الكتب والقصص التي يقرأها الأولاد ، و" الأفلام " والملاهي التي يذهبون لمشاهدتها .

دراسة الأطفال :

يجب أن يعنى الوالدان بدراسة كل طفل من أطفالهما على حدة ، والعمل على تنمية نفسيته ، والتزول إلى مستواه العقلى لفهم تصرفاته وبيواعها ، وتبين مواطن ضعفه ، ومدى مقدرته ، وذلك حتى يمكن أخذه بما يلائمه من طرق التربية ، وحتى لا يكلف ما لا يطيق ،

فإن الأخوة . وإن ساعدت البيئة والوراثة على أن ينشأوا في العادة متقاربين في العقل والمزاج والخلق والأمان ، كثيرا ما يختلفون في بعض هذه الأشياء ، أو فيها جميعا لعوامل أخرى منها مرض الوالد أو الوالدة أو الطفل نفسه .

ويجب توجيه كل طفل لوجهة التي تلائم ميوله ، وتتفق واستعداده ، والتي تتجلى فيها مواهبه ، ويظهر نبوغه . فكثيرا ما ذاع مستقبل الطفل لأنه وجه وجهة أخرى غير ما أعدته لها الطبيعة .

وإذا كنت أدعو إلى أخذ كل ولد بما يتفق وطباعه ، فإني أدعو كذلك إلى وجوب العدل في معاملة الأولاد والتسوية بينهم ، فلا يختص الأبوان أحدا منهم بالعطف دون الآخرين ، أو ينصرا ولدا على أخيه إلا بالحق ، فإن التمييز بين الأولاد يبعث في نفوسهم العيرة والحسد ، ويفسد ما بين أعضاء الأسرة جميعا .

السلطة الأبوية :

يجب أن يحفظ الأبوان بسلطتهما الأبوية كاملة ، فلا يسمح أبدا بتجاهلها ، أو الانتقاص منها ، ولعلما أنهما لو تهاونا في ذلك ولو مرة واحدة . فقد عرضاها لخطر الضياع ، وأصبح من أشق الأمور عليهما استرجاعها ، وإعادتها سيرتها الأولى .

ولما كانت هذه المسألة هي مثار النزاع بين كثير من شباب هذا الجيل وبين آباؤهم ، وكان من رأي أن احتفاظ الآباء بها هو السبيل الوحيد لتمكينهم من تربية أبنائهم التربية الصحيحة ، وأنه في صالح الولد نفسه كما هو في صالح الأبوين وباقي الأسرة ، فإني سأحاول هنا أن أدل الآباء على الوسيلة التي تمكنهم من الاحتفاظ بهذه السلطة مع تقبل الأبناء لها ، واطمئنانهم إليها .

يجب أن يشعر الطفل من بدء نشأته بسلطة والديه ، وبوجوب امتثاله لأوامرهما ، فإن الطفل في السنين الأولى يكون كما قدمت مطوعا سهل القيادة ، ومتى اعتاد الطفل هذه السلطة لم تجد نفسه مشقة في تقبلها والإذعان لها .

ويجب أن يشعر الولد بأن والديه لا يصدران فيما يلتقيان إليه من أمر أو نهى إلا عن رغبة صادقة في إبعاده ، والحرص على خيره ، وأنهما لا يفعلان ذلك إرضاء لشهوة عارضة ، أو لزعمة استبدادية . فإذا اطمأنت نفسه لذلك ، وسكنت إليه ، سهل عليه الانقياد لها حتى لو غاب عنه أحيانا وجه الحكمة في بعض تصرفاتهما .

ويجب أن يتدرج الأبوان في منع ولدهما بعض الحقوق والحريات كلما تقدم في السن ، فإن في هذا إدخالا للسرور على نفسه ، وإشعاره بتقدمه يوما عن يوم ، وتدريباً له على

استعمال تلك الحقوق والحريات . ويجب أن يكون منحها عن رضى واختيار ، فإن من أشنع الخطأ أن يعطى الآباء مثل هذه المنح نتيجة للضغط أو الإكراه لأن ذلك يذهب بكل قيمتها ، ويفرى الأبناء بالتماضى فى مطالبهم ، وعدم الوقوف بها عند حد .

ويجب احترام شخصية الطفل ، والعمل على تقويتها وإبرازها ، وإشعاره بأن له إرادة مستقلة لا يعترضها الأبوان إلا إذا خرجت به عن الطريق السوى ، فإن شخصية الطفل وإرادته المستقلة من أمضى أسلحته فى معترك الحياة ، ومن الحرم الذى لا يفتقر للوالدين أن يكونا سببا فى تجريدته منها ، أو الإضعاف من قوتها .

المثوبة والعقاب :

لست أعلى إذا ذكرت أن المثوبة والعقاب — وهما أقوى مظاهر السلطة الأبوية — من أشد العوامل أثرا فى تربية الطفل ، وفى علاقته بوالديه ، وأن السبب فى نجاح فريق من الآباء فى تربية أبنائهم وفشل فريق آخر يرجع لدرجة كبيرة إلى أن الفريق الأول عرف كيف يحسن استعمالها ، بينما أساء الفريق الثانى ذلك .

فإنابة الطفل المحسن تشجعه على مداومة الإحسان ، وتشجذ همته ، وتقوى عزيمته ، وتقوى غيره بأن يحذو حذوه ، ويحسن مثله . ولكن المثوبة — ككل شىء آخر — يجب أن توضع موضعها ، وأن تتناسب مع العمل ، فهى تتدرج من نظرة رضا ، إلى كلمة ثناء ، إلى تحقيق رغبة من رغبات الطفل ، وتصل أخيرا إلى المكافأة المادية ؛ ولكن يجب عدم الإسراف فى الثناء والإلا ملك الشرور الطفل ، كما يجب الإقلال من المكافآت المادية ، وعدم منحها إلا لعمل جليل فوق ما ينتظر من الطفل عادة ، وإلا ضاعت الحكمة فيها ، واعتاد الطفل أن يقيس قيمة الأعمال بـمقياس مادى صرف .

أما العقوبة فهى أكبر خطرا من الثواب ، وتستدعى حرصا أكثر فى تقديرها ، لما تسببه للطفل من الألم ، وما تشعره من المذلة ، وهى — كالمثوبة — ينبغى التصدق فى توقيعها ، والتجاوز أحيانا عن بعض الهنات القليلة الخطر ، وإلا فقدت تأثيرها ، كما ينبغى أن تتناسب مع الذنب ، وأن يشعر الطفل بأن ما ارتكبه من الخطأ يستحق العقوبة التى وقعت عليه ، وإلا ترك شعوره بالظلم أسوأ الآثار فى نفسه ، وينبغى كذلك ألا تكون من نوع يجرح كرامة الطفل أو يخقره فى نظر نفسه .

ويجب ألا يسرف الأب فى بذل الوعود ، أو التهديد والوعيد ؛ فإذا وعدتحم عليه الوفاء ، وإذا أوعد كان عليه إنفاذ ما أوعده به ، كما يجب ألا يكون الوالد أسرع إلى العقوبة منه إلى المكافأة ، وألا يتجاهل حسنات أبنائه بينما هو يمحى عليهم كل سيئاتهم .

ث المدرسة :

تقوم المدرسة بإعداد الطفل للحياة العملية، ويشارك مدرسوها الوالدين في تربية أبنائهم وتكرين أخلاقهم . فهمة المنزل والمدرسة متشابهة . وواجباتها مشتبكة متداخلة ، لهذا كان التعاون بينهما ضرورياً لحاج الطفل ، وكان على الأب أن يراقب سير أبنائه في المدرسة ويقدمهم فيها ، وتؤديتهم ما يكفون به من واجباتها ، وأن يوالى إرشادهم وحثهم على الجِد ، وتشجيعهم إذا أحسنوا . ولومهم إذا قصرُوا ، على ألا يبالغ في شيء من ذلك وإلا فقدوا فضيلة الاعتماد على النفس ، وأصبحوا لا يؤدون شيئاً من واجباتهم ، لأن يسوقهم الأب إلى ذلك سواً . وعليه ألا يتطلب من أحدهم فوق طاقته ، أو يلومه لتصوره في إدراكه ، أو يظهر بأمره ، وإلا فقد الولد ثقته بنفسه ، وفي ذلك أبلغ الضرر .

وعلى الأب ألا يتطالب الأبناء بالمداكرة طول الوقت ، وأن يسمح لهم بأن يستوفوا قسطهم من الراحة والاستجمام ، وإلا أدرأهم التعب والسأم . ولم يفتنوا بما يبذلونه من مجهود .

وعليه أن يعنى تربية أبنائه تربية شديدة عنايته بتربيتهم العامية ، وأن يشجعهم عليها ، ويمهد لهم سلمها ، ولا يسن بنوكت لئلا يشق فيها ، فإن العقل السليم في الجسم السليم كما تقول حجة القديمة . وقد أجمعت أمم العالم المتحضرة على أن تربية تنشئ العقول الراجحة ، والأخلاق المتينة ، كما تبنى لأجسام قوية ، نأحلتها لذلك المكان الأسمى من عنايتها .

دور الأم :

وإيس دور الأم في تربية أبنائها أقل خطراً من دور الأب ، فهي تستطيع بضم جهودها في جهود الأب أن تساعد على توجيه الولد الوجهة الصالحة ، وقد تشمل بخنائها ولين أخلاقها وإسناهم المتبادل بينها وبين أبنائها إلى ما لا يصل إليه الأب من التأثير فيهم ، وإصلاح شأنهم .

على حسنى إبراهيم